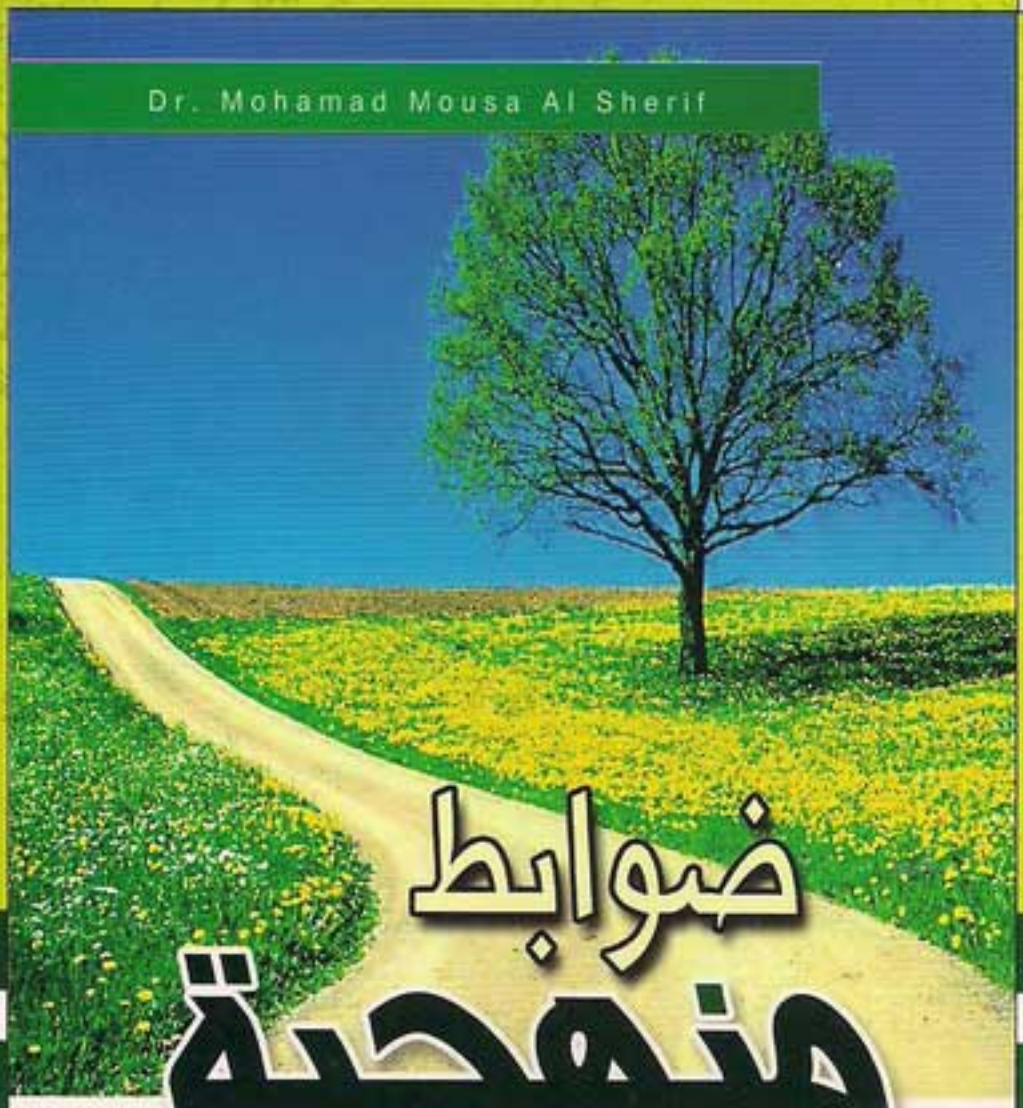
Dr. Mohamad Mousa Al Sherif



ضوابط منهجية في عرض السيرة النبوية

تأليف

الدكتور
محمد موسى الشريف

www.dawahmemo.com

ضوابـط منهجيـة في

عرض السيرة النبوية

ضوابط منهجيـة في عرض السيرة النبوية

تأليف

محمد بن موسى الشريف


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن اللّه تعالى بعث رسوله e ليكون هادياً وبشيراً، وشاهداً ونذيراً، وختم به الرسل العظام والأنبياء الكرام، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، وأرسله بقرآن عظيم وكتاب كريم هو أفضل الكتب المنزلة، وجعل شريعته سمحة لا حرج فيها ولا عنت، ونصبه للناس قدوة وأسوة، وهذبه وأدبه وكمّله حتى صارت سيرته بين الأنبياء هي السيرة المثلى، وطريقته هي الطريقة العظمى، وحثنا سبحانه وتعالى على الاقتداء به والاتّساء فقال جل من قائل: [É‹qÍ‘ ’Îû‰ÏÜ≈ b¥. ß©)©] [#Ÿ≈Ÿ. ©$•.Ïr •Å¥Ÿ$Pö×ß ©$¥qã_ö‘ b¥. `Jÿ)ßŸ¡ m îqÕ¥é‹$][1]

(١) سورة الأحزاب: آية ٢١.

ووصفه جل جلاله بقوله: [ÐŠàã @æz 4?è9 7Ñ]r][1].

وما انتقل r إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن اكتملت سيرته من كل جوانبها، حتى صار كل باحث عن جانب من جوانب الكمال إنما يطلبه من شخصيته ويغترفه من سيرته، فهو رئيس الدولة، وقائد الجيش، والمخطط والمنظم، وهو المشرع، وهو الإمام الذي يصلي بالناس، وهو القاضي، والمفتي، والبطل الشجاع، وهو الموجه والناصح، وهو الذي تنتهي إليه مشكلات الناس ومطالبهم، وهو الزوج المحب، والأب الرحيم، والجد الحنون، والأخ الكريم والمربي الكامل، وهو فوق ذلك كله بأبي هو وأمي r .

ولما كان كذلك، واكتمل له كل ما هنالك صار هو القدوة العظمى، وانتصب للناس شخصيةً مثلى r وصار غاية جهد أتباعه أن يتأسوا به، وأحسن ما يمكن أن يأتوا به هو أن

(١) سورة القلم: آية ٤.

يسلكوا مسلكه، وأن يتتبعوا سيرته، وأن يرتشفوا من معينه الطاهر، ويغترفوا من محيطه الهادر.

وأقبل علماء الإسلام يكتبون هذه السيرة، ويُعنون بتفاصيلها ودقائقها بل أزعم أنهم أتوا على جوانبها كلها، ولم يَفُتْهم منها إلا ما طُبعت عليه الطباع البشرية من الغفلة والنسيان، لكن لما كان الذين كتبوا ودونوا جملة وافرة فإن بعضهم قد سد نقص بعض حتى اكتملت هذه السيرة حُلَّة سِيَراء، وصارت أعظم قصة لأعظم رجل، بل لأعظم مخلوق خلقه الله تعالى r .

وكتب السيرة كتب كثيرة، متنوعة، بعضها قد نسجت سيرة حياته الشريفة المنيفة من أولها إلى آخرها على منوال واحد لا يختلف بينها: ابتدأ بولادته -بل قبلها- وانتهى بوفاته r [1].

(١) وهذا كان الغالب على كتب السيرة النبوية القديمة والحديثة.

وبعض تلك الكتب قد طرق السيرة من جوانبَ محددة، ولم يُعن بالترتيب الزمني[١].

ـ وبعضها قد سجل السيرة أحداثاً مجردة.

وأخرى سردت السيرة مقرونة بالعبر والعظات.

وربما ببعض الاستنباطات الشرعية والأحكام الفقهية[٢].

ـ وبعض الكتب قد جاء مطولاً جداً حاوياً لكل ما ورد، لم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكر وسرد[٣].

وبعض الكتب قد أورد السيرة موجزة مختصرة كأنها رؤوس أقلام، وإشارات لذوي الأفهام[٤].

ـ وبعض الكتب عظمت قيمتها العلمية وجلّت حتى صارت مثل عيون الكتب.

---

(١) وذلك مثل "زاد المعاد في هدي خير العباد" للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى.

(٢) وهو ما عرف بفقه السيرة، وهو عمل المحدثين في الأغلب.

(٣) وعلى رأس تلك الكتب: "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" r للإمام الصالحي، وهي مطبوعة في أربعة عشر مجلداً.

(٤) مثل "السيرة النبوية: دروس وعبر" للدكتور مصطفى السباعي.

وبعضها الآخر قد تساهل مصنفوها حتى أوردوا فيها الصحيح والضعيف والموضوع[١].

وبعض المعاصرين قد كتب في السيرة لكنه لوّثها بتأويلات ومُخِلاّت، فالمعجزات عنده لها تأويل يخرج بها عن كونها خارقة، ويقربها من العادات، ونهج نهج العقلانيين، وسار سَيْرَ المُتَمَحِّلين[٢].

وبعض تلك الكتب قد ورد فيها إنكار لبعض الوقائع الصحيحة لكونها لم تُسَغ عند عقول مصنفيها.

ولذلك كله ظهرت الحاجة لإعادة كتابة السيرة، وعرض تلك السريرة، على وجه حسن وطريقة قويمة، تتجنب المزالق المذكورة، وتورد حسنات المؤلفين المشكورة، وتراعي الشمول في غير تطويل حتى تراعي حاجات العصر،

---

(١) مثل "السيرة الحلبية".

(٢) مثل محاضرات الخضري في السيرة، ومثل تمحلات الأستاذ محمد عبده في تفسير بعض أحداث السيرة الواردة في جزء عم وسيأتي الحديث عنها. ونحو بعض كلام الأستاذ محمد فريد وجدي، والشيخ محمد رشيد رضا في طوره الأول.

وتناسب أحوال أهله، وسآتي -إن شاء الله تعالى- على الضوابط المنهجية في تجديد عرض السيرة النبوية موجزاً، راجياً أن أوفق في هذا الإيراد، ولا أحرم التوفيق والسداد، والله المستعان، وعليه التكلان[1].

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

البريد الإلكتروني: mmalshareef@hotmail.com

الموقع على الشبكة: www.altareekh.com

(١) هذا البحث قد قدم لمؤتمر نصرة النبي r الثاني المعقود في الكويت من ٤- ٦ من ذي القعدة سنة ١٤٢٩، نوفمبر ٢٠٠٨، فأعدت قراءته، وأضفت له أربعة ضوابط مهمة، هي السادس إلى التاسع.

الضابط الأول: دخول الأخبار تحت دائرة القبول:

إن المتعرض لإعادة كتابة سيرة رسول الله r إنما يتصدى لأمر عظيم، كثرت أخباره، واتسعت تفاصيله، وتفرقت في الكتب الكثيرة، وأكثر تلك الأخبار قد ورد بسند، وبعضها الآخر بدون سند، وأكثر الأخبار قد جاء صحيح الإسناد، وبعضها الآخر قد ضعف إسناده أو وهى وسقط، فكيف تورد تلك الأخبار؟

إن علماء الإسلام ومؤرخيه في ذلك على طرفين ووسط، فقسم أورد كل شيء، ولم يقنع إلا أن يأتي بكل ما وقف عليه من السيرة غير آبه بدرجته من الصحة والضعف والوضع،

وهؤلاء كلهم من القدامى[١]، فإني لا أعرف أحداً من المعاصرين سلك هذه السبيل.

وقسم آخر من العلماء شدد وأبى إلا أن يأخذ بمناهج المحدثين في التصحيح والتضعيف، ورفض الأخبار التي عليها مخايل الضعف، وجل هؤلاء بل ربما كلهم من المحْدثين[٢].

وقسم آخر توسط فأخذ من السيرة جل أخبارها، ونقد ما يراه من ضعف أو نكارة أو وضع[٣].

أما القسم الأول فلا يُعَوّل على ما يورده من الأخبار الموضوعة أو شديدة الضعف أو الغريبة المنكرة، وإنما يؤخذ

---

(١) وعلى رأس هؤلاء الإمام الصالحي في كتابه الضخم "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" r والحلبي في "السيرة الحلبية".

(٢) انظر مقدمة د. عمر الأشقر على كتاب الشيخ إبراهيم العلي "صحيح السيرة النبوية"، وانظر مقدمة د. مهدي رزق في كتابه "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية".

(٣) وعلى رأس هؤلاء الإمامان الذهبي وابن كثير على تفاوت بينهما؛ فالذهبي أكثر تحرياً وأحسن ضبطاً وأقوى نقداً، وإن كان نفَسُه في نقد مرويات السيرة أقل من نفسه في نقد المرويات التاريخية الأخرى.

منه ما وافقه عليه الجمهرة من رواة السيرة؛ إذ إن القارئ يقرأ في تلك الكتب غرائب وعجائب لا تليق بسيرة سيد المرسلين r .

وربما كان مثل هذا الخلط هو الباعث على الصيحة التي صاحها المنادون بوجوب كتابة السيرة على قواعد المحدثين.

وأما القسم الذي شدد في قبول الأخبار، ولم يقبل منها إلا ما صح على وَفْق منهج المحدثين فأرى أنه لم يسلم من الشطط، فقد أسقط بهذا من السيرة أحداثاً تفصيلية مهمة بدعوى أنها لم تثبت ثبوت الأخبار الحديثية، وإليكم هذا النص الموضح لما ذهب إليه أهل هذه المدرسة:

"إن كتب المغازي والسير تشتمل على الروايات الضعيفة والموضوعة، ولكنك تجد لكل رواية إسناداً[(١)]، والواجب على الباحث أن يحقق هذه الأسانيد ويختار الصحيح منها"[(٢)].

---

(١) في هذه الكلية نظر؛ فإن أخباراً كثيرة قد وردت بلا إسناد.

(٢) "دراسات في السيرة النبوية": ١٠٧.

وأقول: إن الباحث إن صنع هذا فسيترك تفصيلات مهمة يحتاج إليها الجيل لكنها لم تثبت بسند صحيح ولا ضير في إيرادها، وقد رأينا مَن كتب في السيرة النبوية الصحيحة فأسقط عدداً من الروايات بدعوى ضعفها وهي مفيدة في إظهار النص وتبيينه أو تكميله:

"ينبغي الانتباه إلى أن الانتقاء عندما يتم وفق قواعد صارمة فإنه يدع مجالاً لتلفت العديد من النصوص التاريخية التي يمكن التعامل معها وفق معاييرَ أقلَّ صرامة، ومِن ثَمّ فإن قراءة نصوص الواقدي[١] وفق منهج النقد التاريخي تتيح الفرصة لإضافات أخرى لمادة السيرة، وهذا ينطبق على الروايات التي أوردها ابن اسحاق[٢] دون إسناد .. إن هؤلاء الرجال المتخصصين

(١) محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي، المدني القاضي، نزيل بغداد. متروك مع سعة علمه. مات سنة ٢٠٧ وله ٧٨ سنة رحمه الله تعالى. انظر"التقريب": ٤٩٨.

(٢) محمد بن إسحاق بن يسار العلامة الحافظ الأخباري أبوبكر وقيل: أبو عبدالله القرشي المطلبي مولاهم المدني صاحب السيرة النبوية وكان جده يسار من سبي عين التمر في دولة خليفة رسول الله r ولد سنة ٨٠ وتوفي ١٥٠، انظر"نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء": ٦٧٣

في فن السيرة قد عوملوا من قبل النقاد القدامى بتساهل كبير بغية الإفادة من رصيدهم التاريخي الهائل ..." [١]

"والمطلوب اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها ثم الحسنة ثم ما يعتضد من الضعيف لبناء الصورة التاريخية لأحداث المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام ... أما الروايات الضعيفة التي لا تقوى أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغ الذي لا تسده الروايات الصحيحة والحسنة على ألا تتعلق بجانب عقدي أو شرعي... أما الروايات المتعلقة بوصف ميادين القتال وأخبار المجاهدين الدالة على شجاعتهم وتضحيتهم فلا بأس من التساهل فيها"[٢]

ـــ هذا وليعلم أني وجدت أن مَن شدد في عدم قبول رواية من الروايات إلا أن تكون صحيحة، واشترط هذا في

(١) "السيرة النبوية الصحيحة": ٢٠.

(٢) المصدر السابق: ٤٠.

كتابه الذي صنفه وجدت أنه لا ينفك من إيراد بعض الضعيف ليكمل به النقص والفجوات التي لا تكملها الروايات الصحيحة، وهذا -عندي- مقبول، وبه يقترب أهل هذا القسم ممن صنف في القسم الثالث الذي سأورده بعد هذا إن شاء الله تعالى، فصارت القسمة -على الحقيقة- ثنائية:

قسم تساهل، وقسم أخذ بالصحيح إلا ألا يجد غير الضعيف على التفصيل الذي ذكرته، والله أعلم.

وأما القسم الذي توسط فهو الذي إليه أميل وعليه أُعَوِّل، وأرى أنه حافظ على رونق السيرة وجمالها بدون إفراط ولا تفريط، وأتى بالأخبار التي رواها جل الشيوخ الأوائل الذين جمعوا سيرة المصطفى r.

ولذلك كله أرى -والله أعلم- أن ضوابط إيراد أخبار السيرة في هذا القسم -قسم دخول الأخبار تحت دائرة القبول- هي التالي:

١. ما كان فيها من أخبار تتعلق بالعقائد، أو الفتن، أو الحكم على الأشخاص بالنفاق أو الكفر، أو الإخبار بالمغيبات فهذا لابد من أن يثبت بسند صحيح أو حسن لذاته أو لغيره، على حسب التفصيل الوارد في كتب دراسة الأسانيد الحديثية، ولا يُقبل في هذا القسم الأخبار الضعيفة.

٢. ما كان فيها من أخبار متعلقة بالكمالات النفسية، والمجاهدات، والرقائق، وأخبار الزهد، والشجاعة، والبطولات، وغير ذلك مما لا تعلق له بالقسم الأول، ما كان فيها من هذا الباب من أخبار فإنه يقبل بالضوابط التالية:

أ. أن تكون واردةً في كتب السيرة الأصلية وليست الفرعية، ومن تلك الكتب الأصلية سيرة ابن اسحاق،

وسيرة ابن هشام[١]، وابن سعد[٢]، ونحوهم ممن جمعوا أخبار السير عن أشياخهم الذين كانوا بين صحابي وتابعي.

ب. ألا تكون مما يفحش ذكره، ويسوء إيراده، وذلك كما قال ابن هشام:

"وأنا -إن شاء الله- ... تارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله r فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لِما ذكرت من الاختصار، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم

(١) عبدالملك بن هشام بن أيوب السدوسي وقيل الحميري، المعافري، البصري، أبو محمد العلامة النحوي الأخباري، نزيل مصر، هذب السيرة النبوية. توفي سنة ٢١٨هـ. انظر "سير أعلام النبلاء".

(٢) محمد بن سعد بن منيع، الحافظ العلامة الحجة، أبو عبدالله البغدادي، كاتب الواقدي، ومصنف "الطبقات الكبرى" في بضعة عشر مجلداً و"الطبقات الصغرى" وغير ذلك. ولد بعد الستين والمائة وتوفي سنة ثلاثين ومائتين، وهو ابن اثنتين وستين سنة: انظر "سير أعلام النبلاء": ١١/٦٦٤.

بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعضَ الناس ذكره .."[١]

جـ. ألا تكون من الإسرائيليات، فهذه لها حكم خاص بها.

د. ألا تكون خارجة عن القواعد العامة للشريعة الإسلامية ومقاصدها العلية.

ثم إن هذه الأخبار قد تَرِدُ بإسناد ضعيف وقد ترد بدون إسناد، وهذا لا ضير فيه –عندي– إن اندرجت تحت ما ذكرته آنفاً من الضوابط؛ وذلك لأن وجود هذه الأخبار في تلك السير الأصلية الأولى باعث على الاطمئنان على أن لها أصلاً، وذلك لأسباب:

١. اشتهار تلك الأخبار بين السلف الأوائل في القرن الأول والثاني، وابن إسحاق –على سبيل المثال– صاحب السيرة المشتهرة إنما هو منهم، وقد رأى بعض الصحابة،

(١) مقدمة سيرة ابن هشام.

وهو مدني وأشياخه مدنيون كانوا قد ورثوا أخبار السيرة واشتهرت بينهم، فلا يضر ورودها -إذن- بإسناد ضعيف أو بدون إسناد.

بل إن الواقدي الذي هو مجمع على تركه يقول فيه الحافظ ابن حجر[١]:

"والواقدي إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولا غيره من أهل المغازي فهو مقبول عند أصحابنا"[٢]

وقال فيه الإمام الذهبي[٣] رحمه الله تعالى:

---

(١) أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ، أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري الشافعيّ. ويعرف بـ(ابن حجر) وهو لقب لبعض آبائه. ولد سنة ٧٧٣ بمصر العتيقة، ونشأ بها يتيماً. وحفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجَدّ في الفنون حتى بلغ الغاية. وولي بعض وظائف الدولة من حسبة وقضاء وإمامة. وله العديد من المصنفات النافعة المشهورة. توفي -رحمه الله تعالى- سنة ٨٥٢. انظر "الضوء اللامع": ٢/٣٦- ٤٠.

(٢) "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية" د. مهدي رزق الله أحمد.

(٣) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله التركماني الذهبي محدث عصره. ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألّف مصنفات جامعة نافعة. توفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضر رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في "طبقات الشافعية الكبرى" ٩/١٠٠- ١٢٣.

"لا يستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم ... وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ وتورد آثاره من غير احتجاج"[(١)].

ومعنى هذا أن الواقدي إن جاء ببعض التفصيلات التي لا توجد عند غيره وليست هي داخلة في باب العقيدة والشريعة وما شابههما مما ذكرته آنفاً فلا بأس بإيراده مع علمنا أنه ضعيف متروك وهذا حتى لا تضيع تلك التفصيلات ذوات الفائدة.

٢. إن علماء السلف -رحمهم الله تعالى- قد قبلوا تلك السير من غير نكير أعلمه، وارتضوها بل رواها كثير منهم وتداولوها، ولو أنهم توقفوا في صحتها أو شكوا في نكارة بعض أخبارها لذكروه ولجهروا بذكره، فشيء قد قبله السلف والتفوا حوله، ورووه وارتضوه

(١) "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية" د. مهدي رزق الله أحمد.

أفنأتي نحن المتأخرين لنحذفه بدعوى أنه ورد بإسناد ضعيف أو بدون إسناد!! إنما ينبغي أن نتشدد في الأخبار الواردة في الفتن والأحكام والعقائد ونحوها، أما أخبار البطولات والرقائق والكمالات فما وجه التشدد فيها إذا كانت واردة على الوجه الذي ذكرته آنفاً؟!

وقد قال أحد الأساتذة، وهو من كبار المهتمين بقضية تصحيح السيرة وتنقيتها:

"قد تبرز معان خلقية ودينية مؤثرة في الروايات التي أهملتها، لكنني لم أكترث لذلك ما دامت ضعيفة الثبوت، وقد ظهر جلياً أن الاعتماد على صحيح الروايات وحسنها يكفل توضيح الأبعاد التاريخية للسنة النبوية دون حاجة إلى الضعيف من الروايات"[1]

(١) "السيرة النبوية الصحيحة": ٢٩.

ثم قال مقيداً وموضحاً:

"ويلاحظ القارئ أن الروايات الضعيفة من الناحية الحديثية لم تستبعد نهائياً بل تمت الإفادة منها في الموضوعات التي لا تتعلق بالعقيدة أو الشريعة حيثما لم نجد روايات صحيحة وفق معايير المحدثين ...".[1]

(١) المصدر السابق.

الضابط الثاني: عدم التصرف في نصوص السيرة الشريفة بحكم العقل المجرد عن النص:

إن السيرة النبوية الشريفة المعطرة إنما تؤخذ من مصادر محددة معروفة معلومة، أوجزها في الآتي:

١. القرآن الكريم.

٢. كتب الحديث الشريف.

٣. رواة السيرة العطرة الذين شافهوا الصحابة وكبار التابعين، ثم سطروا ذلك في كتب صارت هي المصادر الأصلية للسيرة النبوية الشريفة.

ـــ وهناك كتب أخرى كثيرة تعد مصادر فرعية للسيرة باعتبار رواية الحادثة لأنها رجعت إلى هذه المصادر الأصلية.

وهذه المصادر للسيرة النبوية تنقسم أخبارها إلى قسمين:

أ. قسم متواتر أو صحيح، فالمتواتر ما جاء في كتاب الله تعالى وما ثبت بالتواتر من الأحاديث، والصحيح هو ما ثبت على وفق شروط المحدثين وضوابطهم المعروفة.

ب. وقسم افتقد الصحة وبقي في دائرة الضعف.

أما القسم الأول فلا يسوغ إنكاره أو رده، أو التعسف في تأويله تعسفاً يفضي إلى أن يكون كأخي الرد، ولا يسوغ تحكيم العقل فيه فما قبله قُبل وما لم يقبله هُتك ورمي به عُرض الحائط، فهذا منهج سقيم؛ فإنه لا يُعلم أن خبراً صحيحاً صادم عقلاً صحيحاً، وإنما يخطئ من يخطئ في فهم دلالة النص أو الجمع بينه وبين قواعد الشريعة، أو الجمع بينه وبين فهوم العقول، وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر.

أما القسم الآخر فإنْ رده رادٌّ فلا حرج عليه، لكن قد ذكرت آنفاً بعض القواعد في قبول أخبار هذا القسم.

وإنما قلت هذا توطئة لذكر صنيع طائفة من أهل زماننا كتبوا كتباً في السيرة فاجترأوا على صنيعٍ ما سبقهم إليه إلا الفرق الضالة وعلى رأسها المعتزلة، فجاؤوا في هذه الكتب بأمر منكر حيث أثبتوا من أخبار السيرة الشريفة ما وافق عقولهم أو على الأصح ما وافق فهوم عقولهم، وردوا منها ما لم يروه بعقولهم حسناً ولو كان في ذروة الصحة في إسناده، وليتهم إذ صنعوا ذلك استندوا إلى أمر قويم وضوابط واضحة لكنها الجرأة في الرد، والإقدام المعيب على الإنكار بدعوى أن هذا لا يصح عقلاً، أو لا يناسب المقاصد العامة للشرع أو غير ذلك من الأعذار الواهية، ومرد هذا الصنيع منهم إلى الآتي، والله أعلم:

١. تحكيم العقل وتقديسه، ورفعه فوق النصوص النبوية الثابتة، وتقديم مقتضاه على ما تقتضيه النصوص من التسليم، وهذا صنيع المعتزلة قديماً، فتابعهم بعض هؤلاء الذين كتبوا في السيرة على هذا المنهج.

٢. تأثر كثير من هؤلاء بالمستشرقين الذين كانوا أساتذة لأكثر مؤلفي تلك السير أو المتكلمين عن أخبارها، والمستشرقون لا يرضون إلا هذا المنهج - منهج التأويل أو الرد لكل ما لا يثبت عقلاً- فتابعهم تلامذتهم على هذا متابعة معيبة.

٣. تأثر كثير من هؤلاء بالأوضاع الحديثة وطرائق التفكير الجديدة التي صُبغت بالصبغة الغربية المادية، فصاروا يستصعبون قبول بعض الأخبار، ويردون كثيراً منها أو يؤولونها على الوجه الذي يذهب بالعبرة والفائدة منها.

٤. لم يكن في أوائل القرن الماضي إلى نصفه - تقريباً- من يرد على هؤلاء رداً قوياً شافياً يوقفهم عند حدهم ويبين لهم خطر صنيعهم، وإن وجد فهو لا يرقى في خطابه إلى مقارعة أولئك الذين كان لهم المنابر، وبيدهم أَزِمَّة الجامعات ودور العلم والإفتاء، وولي الأمر -غالباً-

مناصر لهم وموصل لآرائهم وناشر لها، فليت شعري ماذا تصنع الأصوات الضعيفة وإن كانت كلماتها قوية صادقة؟![1]

٥. غياب الدراسات الإسلامية الجادة - آنذاك- فقد كان مثقفو المسلمين آنذاك عالة على الغربيين في باب الأبحاث التاريخية عامة، وأبحاث السيرة خاصة:

"إن مما ساعد على ذلك تخلف الحركة الفكرية في العالم الإسلامي وعدم مواكبتها للحركة الفكرية العالمية، وذلك مرتبط بما حدث من تباين حضاري بين الشرق والغرب منذ عهد النهضة في أوروبا، فقلما تجد دراسة تاريخية جادة كُتبت من قِبَل المسلمين في القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين، فلا غرابة إذا ما كانت معظم الدراسات

(١) وأعظم مَن رد على أولئك هو شيخ الإسلام في الدولة العثمانية مصطفى صبري التَوْقادي، لكنه حوسب وسُفِّه من قِبَل كثيرين، رحمه الله تعالى.

التاريخية التي قام بها المسلمون في تلك الفترة صدى وانعكاساً لآراء وأفكار المستشرقين"[١].

ـــ وهؤلاء الذين تناولوا أخبار السيرة بمقتضى ما ذهبت إليه عقولهم قسمان:

أ. قسم أوغل في إنكار المعجزات سوى القرآن الكريم أو تأويلها تأويلاً بارداً متعسفاً حتى صار كأخي الرد.

ب. وقسم أوغل في رد الوقائع الصحيحة إن لم توافق قواعد الشريعة في زعمه وبنظر عقله.

وسآتي بشيء من التفصيل على صنيع أهل القسم الأول، وسأوجز عمل الفريق الآخر فيما يلي إن شاء الله تعالى.

أ.الموغلون في إنكار المعجزات أو تأويلها:

قد ظهرت طائفة من كُتّاب السيرة النبوية الشريفة في أوائل القرن الماضي أوغلت في قضية إنكار المعجزات في السيرة

(١) "السيرة النبوية الصحيحة": ٣٠.

الشريفة، أو تأويلها على وجه يُذهب معناها، وما كان مستندهم في ذلك الإنكار أو التأويل المجحف إلا أنها تخالف -عندهم- مقتضى العقل !!

ولا أُراهم صنعوا ذلك إلا مجاراة للعقل الغربي، وطرائق التفكير الغربية التي لا تقيم وزناً إلا للمحسوسات وتنكر الغيبيات تماماً، فليت شعري هل تنكر المعجزات الكثيرة الواردة في سيرة النبي r من أجل مجاراة الغربيين وطرائق تفكيرهم ؟!

ولماذا هذا الضعف والتخاذل ؟! وفات هؤلاء -ربما- أن الله يفعل ما يشاء كما يشاء لمن يشاء، وأن سنن الكون يخرقها سبحانه وقت ما شاء لمن شاء كيف شاء، ثم أليس البعث والنشور قد أنكره العرب الأوائل لاستحالته في ظنهم، وأنكره كثير جداً من الغربيين في العصر الحديث؟ فهل نتابعهم أيضاً على إنكارهم؟! وهل هو إلا معجزة باهرة وخرق

للسنن ظاهر، وإذا أُنكرت المعجزات بدعوى أنها غير مقبولة عقلاً فالبعث والنشور -عند أولئك- غير مقبول عقلاً أيضاً فكيف تابعناهم في شيء وخالفناهم في آخر!!

وهأنذا موردٌ نصاً معبراً تمام التعبير عن هذه التوجه: الذي علق به الأستاذ محمد عبده[1] -رحمه الله تعالى- على حادثة الفيل وإهلاك الله أبرهة وجيشه بالطير الأبابيل، علق عليها بكلام عجيب موجزه أن هؤلاء لم يهلكوا بسبب رمي الطير لهم بحجارة من سجيل وإنما بسبب مرض الجدري والحصبة!! فقال غفر الله له بعد تقريره قضية هلاك أبرهة وجنده بالجدري والحصبة:

"فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيَعْلَق

(١) تفسير جزء عم لمحمد عبده (سورة الفيل).

بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يُعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وإن هذا الحيوان -الذي يسمونه الآن بالميكروب- لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها ..."

فياالله من ضعف هذا الكلام وتهافته عقلاً ونقلاً، ويكفي أن أقول:

١. إن الجدري والحصبة مرضان قد يهلكان المرء وقد لا يهلكانه، ثم إن أهلكاه فبعد زمن طويل نسبياً، وقد أخبر الله تعالى أن هلاكهم كان آنياً: [؟ø‘$ÚÏ2 NÎg‹Bè?] والفاء في [¥Aqà2 ÙB 7#ÁÀè. NÎG-ègú ÇÍÈ @šÅÅA `Ï][1] "فَجَعَلَهُمْ" للترتيب والتعقيب.

(١) سورة الفيل: آية ٤- ٥.

٢. قد ذكر الله الطير نصاً واضحاً لا يحتمل هذا التأويل، والألفاظ في القرآن تحمل على الحقيقة وليس على المجاز إلا في بعضها بقرائن، فكيف نترك الكلام العربي الواضح ونأتي بهذه الترهات؟! ولمصلحة من هذا التأويل البارد جداً؟

وهناك نصوص عديدة خطتها أيدي عدد ممن كتبوا في السيرة الشريفة جنحوا فيها إلى تقرير غريب ألا وهو أنه ليس للنبي r معجزة سوى القرآن العظيم!! وأنكروا انشقاق القمر أو أوّلوا تلك الهجرة الجليلة، وأغفلوا ذكر عدد من المعجزات التي وردت في ثنايا سيرته الشريفة المنيفة، وكل هذا نصرة لمذهبهم الرديء في إنكار أو تأويل كل ما لا يوافق العقل بزعمهم، ونسوا الآتي:

١. إن العقل الصريح لا يناقض النقل الصحيح أبداً.

٢. إن المعجزات لا تتعلق بالمستحيل الذاتي إنما بالعادي، فانشقاق القمر مستحيل عادة لكن ليس بمستحيل ذاتي، بمعنى أن المعجزات لا يجتمع فيها النقيضان فلا يمكن لمعجزة أن تأتي بليل ونهار معاً، أو تجعل الشخص في مكانين في وقت واحد، ومعجزات سيد البشر r ليست على هذه الشاكلة إنما هي كلها من باب المستحيل العادي الذي لما كان غيرَ متصور عند البشر فلربما سارع بعضهم إلى إنكاره لكنه ليس بمستحيل عقلاً.

ب.مَن رد الأخبار أو ضعفها بمقتضى العقل:

وهذه آفة تشبه التي قبلها، وتندرج في بعض جوانبها فيها، فيعمد الكاتب إلى رد الأخبار الصحيحة الشريفة لأنها

لم توافق -فيما ذهب إليه بعقله- قواعد الشريعة أو مقاصدها، وحسبي أن أورد هذا المثال:

أورد الأستاذ محمد الغزالي -رحمه الله تعالى- حادثة بني المصطلق ثم ذكر أنه قد ورد أن النبي r أغار عليهم وهم غارّون -أي بدون إنذار مسبق- وأن هذه رواية الصحيحين، فقال :

"صددت عن إثبات رواية البخاري ومسلم للطريقة التي تمت بها غزوة بني المصطلق؛ فإن رواية الصحيحين تشعر بأن الرسول r باغت القوم وهم غارّون، ما عرضت عليهم دعوة الإسلام، ولا بدا من جانبهم نكوص، ولا عُرف من أحوالهم ما يقلق، وقتال يبدأه المسلمون على هذا النحو مستنكر في منطق الإسلام، مستبعد في سيرة رسوله r ، ثم رفضت الاقتناع بأن الحرب قامت وانتهت على هذا النحو وسكنت نفسي إلى

السياق الذي رواه ابن جرير، فهو على ضعفه ... يتفق مع قواعد الإسلام المتيقنة أنه لا عدوان إلا على الظالمين".

فها هو الأستاذ -على رفعة قدره- يرد الحادثة لا بقاعدة قويمة أو ضابط صحيح لكنه صنع ذلك لأن عقله لم يستسغ حدوث ذلك ورآه مضاداً لقواعد الإسلام المتيقنة، وأقول، والله أعلم:

١. قد نسي الشيخ -ربما- في غمرة حماسه أن النبي r لا يفعل شيئاً -غالباً- إلا بوحي، فإن صنع شيئاً من تلقاء نفسه فاستبان عدم صوابه روجع، كما حدث ذلك مراراً.

٢. نعم إن الجادة في الشريعة إعلام القوم وإيذانهم بالقتال لكن ما الضير في أن نقول إن هذه هي القاعدة المستقيمة والجادة القويمة إلا أن الله تعالى أذن لرسول r في استثناء بني المصطلق من هذه القاعدة لأمر وحكمة

جليلة؟! وما هي العلة في هذا القول إن قيل؟! خاصة أننا بذلك نعظم الأحاديث ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نجنح إلى الإنكار والرد لخبر جليل ثابت مثل هذا لا لشيء إلا لأن عقولنا لا تتصوره.

هذا وإن علماء الإسلام قد اختلفوا في قضية الإنذار كالتالي:

١. عدم الوجوب مطلقاً، وهو ما حكاه المازري والقاضي عياض.

٢. الوجوب مطلقاً، وهو ما ذهب إليه مالك وآخرون.

٣. الوجوب بالنسبة لمن لم تبلغهم الدعوة، وعدم الوجوب لمن بلغتهم، وهذا مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد، وهو الراجح.[١]

وعلى هذا فلا داعي لإنكار رواية البخاري رحمه الله تعالى.

---

(١) "السيرة النبوية الصحيحة": ٤٣.

هذا وقد جاء في بعض كتب السيرة أنه أنذر بني المصطلق فلا حرج إذن.

لكن حتى لو أراد الباحثون الاعتماد على رواية البخاري فقط فلا حرج كما بينت آنفاً، وليُجعل من عدم الإنذار هنا استثناء من القاعدة العامة، والله يفعل ما يريد.

الضابط الثالث: عدم الجنوح إلى التبرير والاعتذار بدون داع في سوق أخبار السيرة الشريفة:

إن هناك عقدة مستحكمة عند بعض من كتب في التاريخ الإسلامي عامة والسيرة والصدر الأول خاصة، ألا وهي تبرير بعض الأحداث تبريراً واهياً، والاعتذار عن بعضها الآخر اعتذاراً ضعيفاً، وإنما يصنع هذا مَن صنعه فراراً من اللوم والتقريع من قِبَل المستشرقين أو اللادينيين، أو تحكيماً للعقل المجرد، أو لأنه لم يستطع أن يجعل الحدث الذي يسوقه متفقاً مع القواعد الشرعية والضوابط والمقاصد كما يفهمها، فلجأ إلى التبرير أو الاعتذار، فبعض الكُتّاب قد ذهب إلى أن غزوة تبوك التي جرت في أطراف الجزيرة الشمالية بين النبي r وصحبه الكرام وبين الروم لكن -لم يقع قتال- ذهب إلى أنها دفاع عن الحدود الشمالية لدولة الإسلام، وأن الجهاد إنما هو جهاد دفع ولم يَجْعل لجهاد الطلب مكاناً في تاريخ الإسلام!!

واعتذر بعضهم عن تزوج النبي r بجملة من النساء، وبرر ذلك تبريراً ضعيفاً، واعتذر عن جملة من الأمور كان ينبغي له أن يعتز بها لا أن يعتذر عنها:

"إن ما شرعه الإسلام من الجهاد وغيره حق لا يحتاج إلى اعتذار أو تبرير، حتى لو بدا ذلك غريباً أمام الذهنية المهيمنة على الناس في القرن العشرين، لأننا لا نطوع الإسلام وتاريخه لأذواق الناس واتجاهاتهم الفكرية في عصر معين؛ فما يحبذه الناس في عصر قد ينكرونه في عصر آخر، وما يحسبه أبناء بلدة حسناً يراه سواهم منكراً، والحكم لله ولشرعه وليس لأذواق الناس وأهوائهم، والله غالب على أمره".[1]

(١) "السيرة النبوية الصحيحة": ٣٧- ٣٨.

الضابط الرابع: مزج أخبار السيرة بالعاطفة:

إن المرء ليقرأ بعض كتب السيرة فإذا هي أخبار مسرودة على وجه خال من التفاعل والعاطفة، وكأن الكاتب يسرد حقائق علمية طبيعية، أو أخباراً لحوادثَ ووقائعَ لا تمت لتاريخه ودينه ولمرحلة عظمى من تاريخ الإسلام بصلة، وهذا واقع في كثير من كتب المعاصرين وبعض كتب الأقدمين، وربما كان هذا بسبب غلبة المنهج العلمي الجاف في الكتابة الحديثة.

ولا بد -في تقديري- من كتابة الأخبار النبوية بلغة الحب والعاطفة والأدب الرقيق، ومزجها بالتعبيرات التي تَنُمّ عن حب وإجلال وتعظيم، والوقوف بين الفينة والأخرى بين تلك المغاني، والتعليق على جمال تلك المعاني، والتعريج على القلب

قبل الكتابة، وتبيين العظمة النبوية وتلك السيادة، وهذا من أجل أن يتفاعل القارئ مع ما يقرأه، ويعتبر بتلك العبر والعظات.

- وقد قرأت كتباً في السيرة الشريفة المطهرة، وأقول - والله أعلم- إني لم أقرأ قط مثل الذي كتبه الأستاذ سيد - رحمه الله تعالى- في ظلاله مفسراً ومعلقاً على بعض أحداث السيرة، ومثل الذي كتبه الأستاذ محمد الغزالي - رحمه الله تعالى- في كتابه "فقه السيرة"، ومثل الذي كتبه الأستاذ أبو الحسن الندوي - رحمه الله تعالى- في بعض كتبه عن بعض الجوانب من سيرة النبي r وإنما كان هذا لأن لغة الكتابة راقية، والعواطف جياشة بالمحبة، وكثير من الكلمات تقطر رقة وحناناً، وهذا مطلوب في كتابه السيرة، ومرغوب فيه؛ لأنه يدغدغ المشاعر، ويوقظ العواطف، ويحدث الاستجابة، ويحرك القلوب لاستقبال الموعظة والتوجيه والإرشاد.

وليس هذا بِدْعاً من القول، أليس هذا هو منهج القرآن الذي أورد آيات الأحكام على هيئة فريدة ؟ فقد سبق أكثرها قول الله تعالى: **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...]**، وختمت بخاتمة مناسبة للسياق، ووردت مورد التذكير والحض والوعظ، ولم تُسَقْ مساق القوانين الجامدة، أو الأنظمة الجافة.

الضابط الخامس: الإيجاز مع التشويق:

إن نمط الحياة المعاصرة قد فرض على كثير من الصالحين والعاملين والمثقفين أن يُقلوا من قراءتهم فلم يبق لهم من الوقت للقراءة إلا النزر اليسير، فعلى من يريد أن يكتب في السيرة النبوية أن يراعي هذا الأمر فيأتي بها موجزة ليست طويلة طولاً يمنع من قراءتها ولا قصيرة قصراً مخلاً بأحداثها، وأن يأتي بها مشوقة مشجعة على القراءة.

هذا ومن أساليب التشويق ما يلي:

١. الاهتمام بالعبر والعظات وسوقها مقرونة مع الأحداث.

٢. حسن التقسيم والتبويب، واجتناب السرد الطويل إلا لما لابد منه، ويمكن تفريق النص الطويل والتعليق على أجزائه.

٣. جمال العبارة وحسن الأسلوب، والاستعانة قدر الإمكان بنصوص الأوائل فإنهم رُزقوا ملكة التعبير

الحسن والأسلوب الجليل، ورب عبارة يأتي بها الواحد من أولئك تترك من الأثر ما لا تتركه صفحة من صفحات كتب مَن بعدهم.

٤. جمال الطباعة وحسن الخط.

٥. الاقتباس من كتابات أهل العاطفة الجياشة، كما بينت ذلك في الضابط السابق، وذلك لما لحديث العواطف من قبول في القلوب والعقول.

الضابط السادس: شمول العرض لأحداث السيرة كلها:

إن السيرة النبوية هي عرض لحياة سيد البريّة e ، وهي حياة شاملة في جوانبها؛ ففيها القيادة الدينية: التشريع والإفتاء والقضاء والإمامة وتعليم القرآن.

وفيها القيادة السياسية: قيادة الدولة والشورى، والتعامل مع القوى الأخرى داخل الجزيرة وخارجها.

وفيها القيادة الاجتماعية: توثيق العلاقات بأفراد المجتمع، وفض النزاعات.

وفيها القيادة العسكرية: وضع الخطط، وتولي قيادة المعارك، والتوجيه، والإشراف.

وفيها القيادة الدعوية: النصح، والإرشاد، وتحريك المجتمع للعمل لدين الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفيها معالم الأخلاق الحميدة كلها.

وفيها جوانب إيمانية وروحانية لا مثيل لها ولا مزيد عليها.

وفيها الحياة الأسرية السعيدة الشاملة للأزواج والأولاد والأحفاد.

وهكذا نجد أن جوانب حياته e فيها شمول لكل جوانب الحياة على وجه غير مسبوق؛ إذ ليس لنبي من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قبله هذا الشمول، فيما نعلم، ولا ما يقاربه؛ وذلك لحكم منها أن الله تعالى أراد لهذه الرسالة أن تكون خاتمة الرسالات، وأراد -سبحانه- أن تكون صالحة لكل زمان ومكان، فلابد -إذن- أن يكون لصاحب هذه الرسالة المشاركة في جوانب الحياة كلها بل رَفْعُها إلى قمة سامقة لم تكن البشرية تعرفها من قبل.

ولهذا فإن من يريد التأليف في السيرة اليوم لابد له من تناول حياة النبي e على هذا وجه من الشمول وعلى تلك الدرجة من الرفعة، فلم يعد يصلح اليوم -في ظني، والله أعلم- أن تساق أحداث السيرة سَوْقَ الأقدمين لها كابن إسحاق وابن هشام وابن سعد وأضرابهم -رحمهم الله تعالى- ممن ساقوا أحداث السيرة مساقاً تاريخياً حَوْلياً مجرداً من التعريج على كثير مما ذكرته آنفاً من جوانب الشمول في سيرته e.

وكذلك لم يعد مناسباً -في ظني، والله أعلم- أن تثبت جوانب معينة من السيرة في الحركة والتربية والفقه والعظات منزوعة من سياقها التاريخي الكامل، بل لابد من مؤلَّف يجمع كل جوانب السيرة المطهرة مهما كان هذا المؤلف ضخماً متعدد الأجزاء؛ وذلك أنه لا غنى لنا عن فهم السيرة فهماً شاملاً لكل جوانبها بدون تجزئة.

الضابط السابع: الوقوف الطويل عند الجزئيات والتفصيلات:

لا يعني شمول العرض لأحداث السيرة -الذي أوردته في الفقرة السابقة- ألا يقف المؤلف عند التفصيلات، بل إن الشمول يقتضي الاستفادة من هذه التفصيلات، والقارئ لكتب السيرة القديمة يرى أن المصنفين لم يكونوا -غالباً- ينظرون بين السطور، ولم يكونوا يهتمون بالوقوف على كثير من الجزيئات والتفصيلات في سيرة رسول الله e إنما هذا من عمل المُحْدثين، من أهل العصر الحديث، وعلى وجه التحديد هم من كتبوا في منتصف القرن الماضي تقريباً وما بعده، ولا يُلام الأوائل على صنيعهم ذلك فإنه كان منهج عصرهم في التأليف، قال الأستاذ عماد الدين خليل:

"ثم جاء تنامي النشاط الأكاديمي، وتزايد رسائل الدراسات العليا في المعاهد والجامعات لا لكي تعزز القيم

المنهجية الأصيلة في التعامل مع وقائع السيرة فحسب، وإنما أيضاً لكي تنفذ دراسات معمقة في هذه الواقعة أو تلك وفق معايير نقدية صارمة، وقدرة على الإمساك بالدقائق والتفاصيل والجزئيات التي تعين الباحث على الإيغال في شرايين الواقعة من أجل الوصول أو محاولة الوصول إلى بنيتها الأساسية، كما تشكلت فعلاً لا كما أراد لها الرواة والأخباريون والمؤرخون أن تكون ...".

ثم ضرب مثلاً على ذلك بكتب فقه السيرة المتنوعة التي ظهرت في القرن الماضي.[1]

(١) مقالة "السيرة النبوية مشروعاً حضارياً" للأستاذ عماد الدين خليل، على شبكة المعلومات "الانترنت".

الضابط الثامن: بيان الإنجازات الكبرى في حياة رسول الله e التي تغير بها وجه الأرض:

إن هنالك أحداثاً جمة في سيرة رسول الله e تتناول جوانب الحياة كلها على ما بينته في الفقرة الماضية، وقد تكفلت عدة كتب بذكرها على تفاوت بينها في الضبط والإتقان والشمولية، لكن الكتب التي تبرز المنجزات الجليلة التي عادت على البشرية بأحسن العوائد إنما هي كتب قليلة جداً، لا يتناسب عددها مع هذه المنجزات الجليلة العظيمة؛ فإن السيرة النبوية غيرت وجه الأرض، وقفزت بالبشرية قفزات هائلة إلى آفاق لم تكن تحلم بها بل لم تكن تدري عنها شيئاً، وهذا الذي يسميه بعض المفكرين "الحضارة الإسلامية"، وأحب أن أسميه الثقافة الإسلامية؛ وذلك لأن الحضارة إنما تتناول الجوانب المادية المجردة من عمران، وتقنية، بينما الثقافة هي التي تتناول الجوانب المعنوية من حياة الناس؛ وذلك

كالفكر والتشريعات والنظم والقوانين والآداب والفنون والمعارف والعادات والتقاليد، لكن ليس هذا البحث محتملاً لنقاش هذه المسألة ولا مشاحة في الاصطلاح إذا عُرف المضمون، فهذه الحضارة الإسلامية أو الثقافة الإسلامية التي استقرت في الأرض سائدة لها ألف سنة -تقريباً- بلا منازع كانت نتاج الجهد الهائل الذي بذله النبي e في حياته ووفقه الله تعالى بأن توّج هذا الجهد بمنجزات تفخر بها البشرية كلها، قال الأستاذ عماد الدين خليل حفظه الله تعالى:

"لقد كانت حياة الرسول e الكادحة وجهده الموصول حتى آخر لحظة شهادة حية على قدرة هذا الرجل النبي على الإنجاز والتغيير بكل ما تنطوي عليه الكلمتان من بعد حضاري، ولقد جاءت شهادة الباحث الأمريكي المعاصر مايكل هارت في كتابه "المائة الأوائل" تأكيداً لهذا المعنى، لقد حاول الباحث المذكور أن يستقصي ويدرس بمعياري

الإنجاز والتغيير أعظم مائة شخصية في تاريخ البشرية[1]، ثم مضى لكي ينفذ خطوة تالية باختيار أعظم رجل من بين هذه الشخصيات المائة، وبالمعيارين ذاتهما، فإذا باختياره يقع على محمد e فيعتبره أعظم شخصية في التاريخ، وذلك في قدرته على تنفيذ إنجاز كبير ومتغيرات انقلابية تنطوي على الديني والدنيوي معاً".

ثم بين الأستاذ المنجزات التي وفق الله تعالى النبي e لإنجازها وتغيير وجه الأرض بها، فذكر أنها:

١. التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد.

٢. الوحدة في مواجهة التجزؤ.

٣. الدولة في مواجهة القبيلة.

٤. التشريع في مواجهة العرف.

---

(١) وقد اختار هؤلاء المائة من عشرين ألفاً من العظماء.

٥. المؤسسة في مواجهة التقاليد.

٦. الأمة في مواجهة العشيرة.

٧. الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد.

٨. المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظن والهوى.

٩. المعرفة في مواجهة الجهل والأمية.

١٠. الإنسان المسلم الجديد الملتزم بمنظومة القيم الخلقية والسلوكية المتجذرة في العقيدة، في مواجهة الجاهلي المتمرس على الفوضى والتسيب، وتجاوز الضوابط وكراهية النظام.

ثم بين الأستاذ أن هذه المنجزات قد حصلت بآيات القرآن العظيم وأحاديث رسول الله e وهذان المصدران الجليلان أوجدا في المجتمع الإسلامي الأول مجموعة من القيم والآليات "هيأت وغرست البذور الأولى للثقافة الإسلامية

والحضارة الإسلامية اللتين سادتا الدنيا ألف سنة"[١] وهذه القيم والآليات هي:

١. المعرفة هي حجر الزاوية.

٢. النزوع إلى الأمام.

٣. التحذير من هدر الطاقة.

٤. مبدأ الاستخلاف.

٥. مبدأ التسخير.

٦. التحفيز على العمل والإبداع.

٧. مجابهة التخريب والإفساد.

٨. التوازن بين الأضداد والثنائيات، وتوحدها.

٩. التناغم والوفاق بين الطبيعة والكون.

---

(١) ما بين الأقواس من كلامي.

١٠. تحرير الإنسان والجماعات والشعوب على المستويات كافة.[١]

ـ تلك كانت منجزاتٍ تفخر بها البشرية كلها، وينبغي لكل مَن كتب في سيرة النبي e أن يبرزها ويظهرها على الوجه اللائق، والله أعلم.

(١) من مقالة للدكتور عماد الدين خليل بعنوان "السنة النبوية مشروعاً حضارياً"، في الشبكة العنكبوتية "الانترنت".

الضابط التاسع:الاستفادة من كتابات المتخصصين في شتى العلوم والفنون:

إن السيرة كُتبت كاملة منذ القرن الثاني الهجري، على يد ابن إسحاق -رحمه الله تعالى- وغيره من المؤرخين، لكن منذ ابتداء التدوين في العلوم والفنون الإسلامية كتب آلاف من العلماء والأدباء والشعراء في جوانبَ كثيرةٍ جزئية في سيرة رسول الله e فالمحدثون أوردوا آلاف الروايات في السيرة، والفقهاء أوردوا نصوصاً من السيرة وتناولوها بالدراسة، والمفسرون تحدثوا طويلاً عن حياة رسول الله e وتفاصيل من سيرته المنيفة، والشعراء والأدباء عبروا عن عواطفهم الدافقة في آلاف القطع النثرية والشعرية، والمؤرخون -الذين جاؤوا بعد طبقة المؤرخين الأوائل- كتبوا كثيراً عن سيرة رسول الله e ، وكتب أهل اللغة شيئاً في معاجمهم ومصنفاتهم، وكذلك كتب الجغرافيون شيئاً.

وفي العصر الحديث كتب دعاة وأدباء ومفكرون كثيرون في سيرة رسول الله e كتابات جليلة متميزة، فعلى من يريد الكتابة عن سيرة رسول الله e في هذا العصر أن يجمع ما قيل أو كثيراً مما قيل في هذه السيرة من بطون الكتب المتنوعة في تخصصها ومشاربها حتى يخرج الكتاب على صورة متكاملة إلى حد بعيد عن سيرة رسول الله e ، تجمع قرائح وأفكار عظماء الملة ومقدمي الأمة قديماً وحديثاً الذين جهدوا في استخراج دقائق وتفصيلات من حياة رسول الله e ومزجوها بعاطفتهم وفهمهم واستنباطاتهم، فإذا عمد من يريد التأليف إلى الاستفادة من تلك المصادر المتنوعة جاء تأليفه حُلة سِيَراء، وشاملة لكل جوانب حياته e ، حافظة لكل شاردة وواردة من تلك السيرة، ضابطة لها على وجه جليل، قال الأستاذ عماد الدين خليل حفظه الله تعالى مبيناً أهمية الاستقاء من كل المصادر والمراجع التي طرقت السيرة بشكل أو بآخر، فقال:

"لابد من أجل التحقق برؤية كهذه من استدعاء المؤرخ، والمفسر، والمحدث، والفقيه، والجغرافي، وفيلسوف التاريخ،

والأديب لتوسيع نطاق الفضاء المعرفي عن العصر، حيث يصير النص القرآني والحديث النبوي الصحيح والممارسة التاريخية لعصر الرسالة التي يقدمها المؤرخ والفقيه، والملامح البيئية التي يقدمها الجغرافي، والخبرة الذاتية والموضوعية التي يقدمها الشاعر أو الأديب، فضلاً عن الدلالات المحدَّدة للكلمات والتعابير التي يحددها اللغوي هي المصادر الأساسية التي يكمل بعضها الآخر من أجل تحديد ملامح المشروع الحضاري الذي وعدت به ومهدت له ووضعت شروطه التأسيسية ونفذت بعض حلقاته سيرة رسول الله e ..."[1].

(١) من مقالة للدكتور عماد الدين خليل بعنوان "السنة النبوية مشروعاً حضارياً"، في الشبكة العنكبوتية "الانترنت".

خاتمة

هذا هو الذي جمعته في عجالة عن الضوابط المنهجية في عرض السيرة النبوية، والأمر محتمل للتطويل، وبعض القضايا التي أوردتها قابلة للدراسة المعمقة، وأخص بالذكر القضية التي لا تزال محل جدل كبير بين المؤرخين والمحدثين في هذا العصر، وهي قضية الأخذ بأحداث السيرة وفق الموازين التي وضعها المحدثون لقبول الأخبار، فإن الأمر لم يُحسم بعد الحسم التام، وما زال بين القبول والرد.

والله أعلم، وصلّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

فهرست المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- "تحذير العبقري من محاضرات الخضري" الشيخ محمد العربي البتاني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٤/١٩٨٤.
- "دراسات في السيرة النبوية" أ. محمد سرور بن نايف زين العابدين، نشر دار الأرقم، لندن، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧/١٩٨٦.
- "السيرة النبوية الصحيحة" د. أكرم ضياء العمري، نشر مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة السادسة ١٤١٥/١٩٩٤.

- "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: دراسة تحليلية" د. مهدي رزق الله أحمد، نشر مركز الملك فيصل. الرياض. الطبعة الأولى سنة ١٤١٢/١٩٩٢.
- "صحيح السيرة النبوية" الشيخ إبراهيم العلي.

شبكة المعلومات "الإنترنت": مقالة للأستاذ عماد الدين خليل بعنوان "السيرة النبوية مشروعاً حضارياً".

فهرست الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمـة	٥
الضابط الأول: دخول الأخبار تحت دائرة القبول	١١
الضابط الثاني: عدم التصرف في نصوص السيرة الشريفة بحكم العقل المجرد عن النص	٢٥
الضابط الثالث: عدم الجنوح إلى التبرير والاعتذار بدون داع في سوق أخبار السيرة الشريفة	٤١
الضابط الرابع: مزج أخبار السيرة بالعاطفة	٤٣
الضابط الخامس: الإيجاز مع التشويق	٤٧
الضابط السادس: شمول العرض لأحداث السيرة كلها	٤٩

الضابط السابع: الوقوف الطويل عند الجزئيات والتفصيلات ٥٣

الضابط الثامن: بيان الإنجازات الكبرى في حياة رسول الله e التي تغير بها وجه الأرض ٥٥

الضابط التاسع: الاستفادة من كتابات المتخصصين في شتى العلوم والفنون ٦١

خاتمة ٦٥

فهرست المصادر والمراجع ٦٧

فهرست الموضوعات ٦٩